فلم نجد لها من سوء الحظ فهرستاً ؛ بل أحضر لنا دفاتر متعددة كل واحد منها يحتوى قسم منه على شيء من الكتب العربية غير مرتبة ولا مبوبة فلم يتيسر وجود ما أردناه وحملنا ذلك على قلة طلب الكتب العربية فيها أو على أن طالبيها غيرنا أعرف منا بمظانها)[1]

ويصف المكتبة العربية بالمتحف البريطاني بلندن فينتقد فهارسها غير المنظمة ؛ كما يصف مكتبة ليدن بهولاندة ويذكر في كل واحدة من هذه المكتبات بعض ما فيها من نفائس الكتب والمخطوطات .

محمد عبد الغني حسن

(١) إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا

٢ ـ الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

رأينا مما تقدم أن الأديان السابقة على الإسلام إما استفادت من الفنون الجميلة في إيضاح عقائدها وتقريب مبادئها للأذهان ، وإما أنكرت هذه الفنون وقضت عليها ، أما الإسلام فموقفه منها يختلف جد الاختلاف عن هذين الموقفين : فهو لم يستخدم الفنون الجميلة في دعوته كما استخدمتها الوثنية والمسيحية ، ولم ينكر هذه الفنون كما أنكرتها اليهودية ، ولكنه تضمن

كلمة « الله » محفورة على الحجر بجدار
المئذنة الشمالية لمسجد الحاكم بأمر الله —
من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك

توجيهات مختلفة كان لها أبعد الأثر في تكوين الفن الإسلامي بعضها إيجابي ، وبعضها سلبي ، وبعضها كانت بمثابة عوامل مساعدة على رقي الفنون الإسلامية الجميلة ونضوجها . وسنبين فيما يلي هذه التوجيهات المتباينة لنرى كيف استطاع الإسلام بنواهيه وأوامره أن يخلق فناً جميلاً له روعته وبهاؤه

ويتجلى لنا أثر التوجيهات الإيجابية في فنون الخط والزخرفة والعمارة . أما فن الخط فقد حظي من عناية المسلمين جميعاً بنصيب وفير ، وكان للخطاطين عندهم مركز ممتاز لا نبالغ إذا قلنا إنه قد تسامى إلى مركز الملوك والأمراء إذ نزل هؤلاء إلى ميدان الخطاطين ينافسونهم في صنعتهم لا سعياً وراء الكسب المادي ، ولكن رغبة في الحصول على الفخر الأدبي ؛ فكانوا يكتبون بأيديهم نسخاً من القرآن الكريم يقدمونها للبقاع المقدسة . والذي أعطى للخط العربي هذه المكانة الممتازة هو اتصاله القوي بالقرآن كلام الله الذي نزل باللغة العربية على محمد صلوات الله عليه (وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً) فالخط هو وحده أداة كتابة هذا الوحي فضلاً عن أن الحق جل وعلا قد أضاف تعليمه إلى نفسه (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) ، كما أنه سبحانه أقسم به (ن والقلم وما يسطرون) . ومن هنا كان إقبال من اعتنقوا الإسلام على تعلم الخط العربي ، ومن هنا وجدت صلة من أوثق الصلات ربطت العالم الإسلامي بعضه ببعض ، إذ توحد شكل الكتابة ، فصارت الهندية والإيرانية مثلاً تكتبان بالحروف العربية

قطعة نسيج فاطمية عليها سطران متعاكسان بالخط الكوفي تقرأ في العلوي « الخاصة بدمياط » وفي السفلي « رب العالمين » من كتاب الزخرفة المنسوخة في الأقمشة الفاطمية تأليف كاتب هذا البحث

هذا ولقد ظهر بظهور التصوف في الإسلام علم ينسب إلى الحروف العربية أسراراً خفية تمكن الإنسان من التأثير

فى المخلوقات بواسطة « الأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار فى الأكوان » ، كما يقول ابن خلدون فى مقدمته . ولا يعنينا من أمر هذا العلم إلا شىء واحد ، هو أن هذه العقيدة قد دفعت بالمسلمين إلى تزيين ما أخرجته أيديهم من المصنوعات أو شيدوه من العمائر بالآيات القرآنية والعبارات الدينية ، والصيغ المختلفة المدح أو الدعاء ، طلباً لما وراءها من الخير والبركة . ولقد كان لهذا أثر بعيد في فن الخط ، إذ أصبح مضروباً مشتركا فى جميع فروع الفن الإسلامى ، وتحكمت المادة التى يكتب عليها فى شكل الحروف ، فظهرت لها صور مختلفة على الآثار المختلفة ، وأصبحت على الحجر غيرها على الخشب ، وعلى النسيج غيرها على الخزف . وفى الحق لقد كانت إجادة الفنان المسلم لفن الخط بوحى من الإسلام ، ولم تتجل عبقريته الفنية فى ناحية من نواحى الفن الجميل بقدر ما تجلت فى هذه الناحية : خلق من تلك الحروف ذات الأشكال المتباينة والأوضاع المختلفة طرازاً زخرفياً تبدو فيه صور من الجمال شتى ، بعضها يفيض بالقوة ، وبعضها يفيض بالرقة والأناقة ، أوحت إليه الحروف العربية برؤوسها وسيقانها وأقواسها ومداتها بعناصر زخرفية ما كاد يرسمها حتى بعثت فيه تلك اللذة البريئة التى يحس بها الفنان عند ما يشاهد أثراً جميلاً ، فاندفع فى هذا التيار يبتكر الزخارف والنقوش ، غير آبه بما تفرضه عليه أصول الخط من المستلزمات ، ولا بما يسببه للقارىء — فى بعض الأحيان — من الإعنات ، بل كان همه أن يرضى الفن فحسب ، فتارة يجعل الحروف متجمعة كأنها شجرة كثيفة الأغصان وطوراً يرسمها متباعدة ، كأنما هى بستان انتثرت فيه الأزهار ، وتارة يريك من التنوع الجميل بين الحروف القائمة والحروف المستديرة ما ينتزع منك الإعجاب انتزاعا ، ويرغمك على أن تقر له بالتفوق والنبوغ . ولشد ما كان يضحى على مذبح الفن بالكثير من قواعد الخط ، ويتركنا نقاسى من الجهد شيئاً عظيما حتى نهتدى إلى ما يريد ، وقد لا نهتدى .

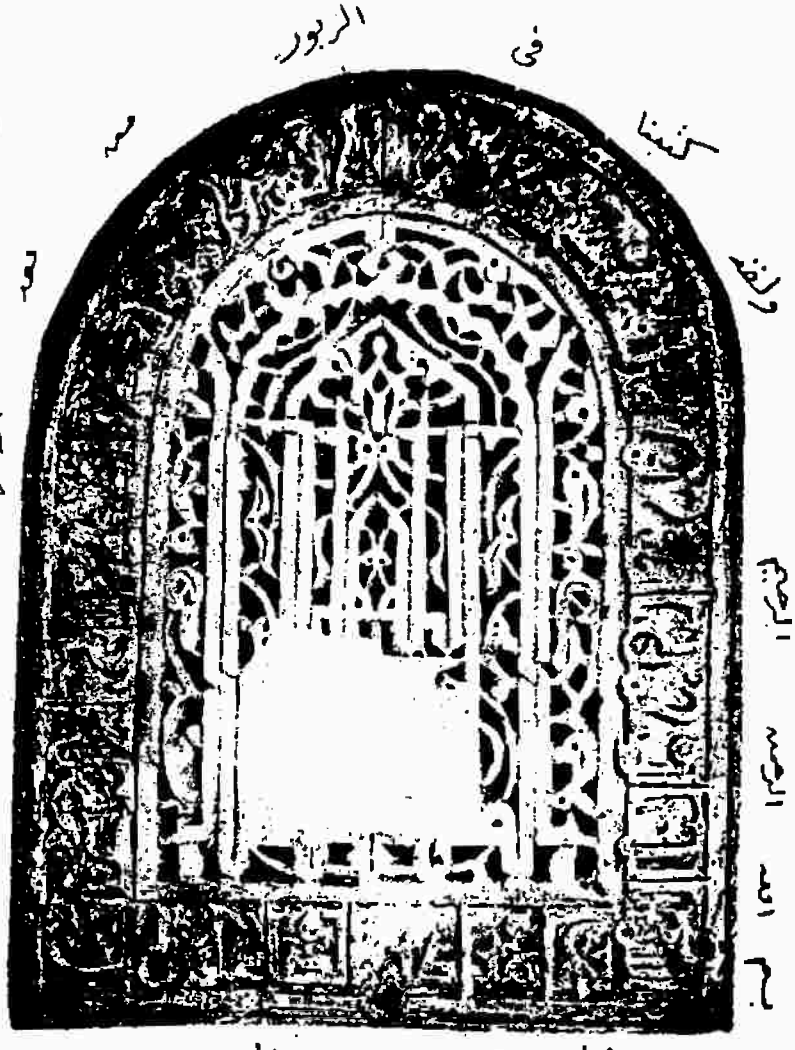

نافذة بجوار القبلة بمسجد الحاكم بأمر الله فى وسطها عبارة « الملك لله » مكتوبة طرداً وعكساً من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك تأليف كاتب هذا البحث

« يتبع »

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية